



الشائيات الضديات في مجموعة "قصائد أولى" لأدونيس

Diodes Opposites In the collection "First Poems" by Adonis

|                                    |                                    |                                       |
|------------------------------------|------------------------------------|---------------------------------------|
| ناصر زارع                          | حسين مهدي*                         | توفيق رضاپور محمدي                    |
| أستاذ مشارك بجامعة خليج فارس-إيران | أستاذ مشارك بجامعة خليج فارس-إيران | طالب الدكتوراه بجامعة خليج فارس-إيران |
| naserezare@gmail.com               | mohtadi@pgu.ac.ir                  | tofighالناسري@gmail.com               |

| ملخص:                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                     | معلومات المقال                                                                                                                                                                                                                                        |
|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p>الشائيات الضديات بنية لغوية تترجم نفسية الشاعر واختلاجاته الداخلية وهذه البنية متقاطعة اللفظ والدلالة. ويُعد توظيف الشائيات الضدية من القضايا المهمة التي شاعت في الشعر العربي المعاصر حتى أصبح سمة بارزة من سماته. والشائيات الضدية زوجان متعاكسان ويكون هذان الزوجان ماديين كالطول والقصير أو معنويين كالفرح والحزن. عرفت العرب مصطلح "الشائيات الضدية" منذ القدم بأسماء أخرى مثل: التقابل، والطباق، والتضاد، وعرفوه بأنه تضاد باللفظ وتضاد بالمعنى، كالسواد والبياض والنور والظلام وهذا ينطبق على كل الإحساسات والإدراكات والصور العقلية كالشعور باللذة والألم والتعب والراحة. إن المتقاضي لمسيرة أدونيس الشعرية يرى هناك نسقا فكريا لا ينفك عنه، وبدأ حركته أكاديميا ثم رافقه ثقافيا وإبداعيا ومعرفيا وهو أن في الثقافة العربية يختلف اتجاهاتها وحقوقها ثنائية متنازعة ملتهبة، إنها ثنائية الثابت والمتحول، ومنها تمخضت ثنائيات أخرى مثل: ثنائية الاتباع والإبداع، وثنائية الأصول والتأصيل، وثنائية الإبداع والحاكاة، وثنائية السلطة والمعارضة، وثنائية القيد والحرية، وثنائية الحداثة والموروث. تأتي هذه الدراسة، على أساس فكرة أن كل شيء في الوجود يحمل معه نقيضه، لرصد وتحليل بعض الشائيات الضدية في مجموعة "قصائد أولى" للشاعر السوري علي أحمد سعيد (أدونيس) التي تحمل في ذاتها تناقضا صارخا بين موقفين أو حالين أو تصورين يقف كل منهما في مواجهة الآخر موقف الضد من الضد. والهدف من هذه الدراسة، المعتمدة على المنهج -الوصفي التحليلي- إظهار هذه التضادات في شعر أدونيس ومحاولة الوقوف على تشكلاتها في نصوصه، فشعره زاحز بالشائيات الضدية، فلا بد من دراستها ومعرفة مدى تأثيرها في شعره وكذلك معرفة طبيعة البواعث التي دعت إلى كثرة توثيق علاقته بها واستخدامها بالإضافة إلى الكشف عن سبل توظيف هذه الشائيات وما يحويه من معاني ودلالات باعتبارها مظهرا بارزا من مظاهر الشعر الحديث. وأهم المحاور التي درسناها هي: ثنائية الحمد والحركة، وثنائية الحلم والواقع، وثنائية الضوء والعممة، وثنائية الحضور والغياب، وثنائية اليأس والأمل. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج -أهمها: إن قيمة الشائيات الضدية عند أدونيس تكمن في السماح بتعدد الدلالات وهو ما يمنح صفة الشعرية؛ فكلما كثر التضاد في النص زادت حدة الشعرية.</p> | <p>تاريخ الارسال:<br/>2023/02/24</p> <p>تاريخ القبول:<br/>2023/04/30</p> <p><b>الكلمات المفتاحية:</b></p> <ul style="list-style-type: none"> <li>✓ الشعر العربي المعاصر</li> <li>✓ الشائيات الضدية</li> <li>✓ قصائد أولى</li> <li>✓ أدونيس</li> </ul> |
| Abstract :                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                | Article info                                                                                                                                                                                                                                          |
| <p>Binary Opposition is a linguistic structure that translates the poet's psyche and his inner conflagrations. The use of Binary Opposition is one of the important issues that spread in contemporary Arabic poetry until it became a prominent feature of it. the Binary Opposition are different couple, and these two pairs are material, such as long and short, or spiritual, such as joy and sadness. This study comes, on the basis of the idea that everything in existence carries with it its opposite. To monitor and analyze some of the opposite dualities in the collection of "First Poems" by the Syrian poet Ali Ahmed Saeed (Adonis), which carries in itself a stark contradiction between two positions, two situations or two perceptions, each of which stands In the face of the other the position of the opposite of the opposite. The aim of this study, which is based on the descriptive-analytical method, is to show these contradictions in Adonis' poetry and try to identify their formation in his texts. In addition to revealing the ways of employing these binaries and what they contain of meanings and connotations as a prominent aspect of modern poetry. The most important axes that we studied are: the duality of deadlock and movement, the duality of dream and reality, the duality of light and darkness, the duality of presence and absence, and The duality of despair and hope. The study reached a set of</p>                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    | <p>Received<br/>24/02/2023</p> <p>Accepted<br/>30/04/2023</p> <p><b>Keywords:</b></p> <ul style="list-style-type: none"> <li>✓ contemporary arabic poetry</li> <li>✓ opposite dualities</li> <li>✓ first poems</li> <li>✓ Adonis</li> </ul>           |

results; The most important of them: The value of antonyms according to Adonis lies in finding a distinct effect in the reader's mind in various fields. The presence of antonyms allows for a multiplicity of connotations in the literary text.

## 1. المقدمة

إنَّ الحياة كلها توازن وتقابل وتضاد. كان البناء التكويني للعالم وما يزال يمثل حركة التصادم والصراع بين الأشياء، والحياة قائمة ومستمرة على وفق هذه الحتمية التاريخية المرتكزة على ثنائيات متضادة كثيرة لا يمكن وضع حدٍّ أو نهاية لها: النور والظلام، الموت والحياة، السواد والبياض، الخير والشر، الحسنات والسيئات، الصدق والكذب، الدنيا والآخرة والخ.

وقد تناول القرآن الكريم هذه المسألة، حيث يؤكد لنا الخالق في محكم كتابه أنها موجودة في العالم وفي الطبيعة البشرية وفي ما لا يعلمه الانسان. فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد/3) نجد من خلال هذه الآية الكريمة اعتماد القرآن الكريم على الجدل القائم على الثنائيات الضدية ليرز بواسطته قدرة الله تعالى على الجمع بين المتناقضين في الخلق والإبداع، إذ إنه خلق الاثنين معًا وأنشأهما، فهو لم يخلق طرفًا دون الآخر وإنما خلق الاثنين معًا فكانت الثنائية بين هذين المتناقضين هي التي وصفت لنا عظمة قدرته سبحانه وتعالى. وهكذا فالتقابل بين هذه الثنائيات الضدية «من الأسس التي يقوم عليها الوجود، فهو يملأ الحياة حولنا ويجعلها تستمر وتبقى ولولاه لفقدت معناها» (الواسطي، 2003 م: 234). يقول الجاحظ: «اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر، والضرار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة. ولو كان الشر صرفًا لهلك الخلق، أو كان الخير محضًا سقطت المحنة، وتقطعت أسباب الفكرة ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة» (الجاحظ، 1424هـ، م 1 / 134). ويعود قسمٌ كبير من تفكير الإنسان إلى الجمع بين المتضادات وحوار الحدود المتقابلة والمتباعدة وهو ما يُسمى بالفلسفة الجدلية، أو الديالكتيك، فتجتمع في أغوار النفس البشرية ثنائيات ضدية: الحياة والموت أو الحضور والغياب أو الواقعي والخيالي، أو الأرضي والسموي، أو الذكورة والأنوثة، أو الأمس والغد.

كما هو معلوم أن اللغة تعبير عن الحياة و انعكاس للواقع المتناقض والمتصارع، والأدب تعبير عن النفس البشرية المتقلبة، وبما أن الأدب يمثل صورة من صور الحياة فهو يعكس جانبًا مهمًا من هذا الصراع من خلال تقديم مواقف متعددة ومتناقضة في أزمنة وأمكنة متعددين تكشف عن مواقف خاصة. فتم سحب ظاهرة الثنائية الضدية الفلسفية على النقد الأدبي «وأول من طبقها على الأدب هم البنيويون» (الديوب، 2012 م: 99) فمن هذا المنطلق وعلى أساس فكرة أن كل شيء في الوجود يحمل نقيضه اهتم باحثون كثيرون بدراسة الثنائيات الضدية في الأعمال الأدبية.

من هنا يمكننا الحديث عن الثنائيات الضدية ودلالاتها في قصائد الشاعر السوري علي أحمد سعيد (أدونيس) وهو قمة شائخة في طليعة رواد التجديد في الشعر العربي المعاصر إلى جانب يوسف الخال، وأنسي الحاج، ومحمد الماغوط، وسعدي يوسف، ومحمد بنيس، وعز الدين المناصرة ومن الشعراء التمزجين الذين يرمون إلى هدم البنى الثقافية القديمة وإعادة بنائها من جديد بطريقة تحمل روح العصر وتدفع الشعب العربي إلى الأمام في طريق التطور، فعودة تموز إلى الحياة تعني الخصب والتكاثر وازدهار الطبيعة وأنهم استلهموا هذه الفكرة وقيمته الطقسية في التعبير عن أملهم في ميلاد جديد للعالم على أنقاض العالم القديم المحذب العقيم. القارئ لشعر أدونيس يكتشف فضول مغامر يريد أن يرى ويعرف ويقايض أحدهم بالآخر، الحياة بالموت، أو السكينة بالاضطراب، المثقف بالسلطة، أو الحضور بالغياب، أو الأمن بالخوف. كما يستشعر، أيضًا أن لهذه الثنائيات مكانة شعرية خاصة.

كتبت عدة دراسات عن الثنائيات الضدية في الشعر العربي، منها: كتاب "الثنائيات الضدية (دراسات في الشعر العربي القديم)" من تأليف سمر الديوب، صدر سنة 2009 في دمشق. يضم هذا الكتاب بين دفتيه ثمانية فصول ويأتي محاولة لإضاءة جوانب من التراث الشعري العربي في ضوء المستجدات النقدية الحديثة. وكذلك كتاب "الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالاته" للمؤلفة السابقة صدر سنة 2017 عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، في هذا الكتاب تكتب هذه الباحثة السورية حول مفهوم "الثنائيات الضدية" بوصفه ظاهرة فلسفية تمتد إلى مجموعة من العلوم الإنسانية ولا سيما في مجال النقد الأدبي، وإضافة إلى ما تقدم، دراسة "الثنائيات الضدية وأبعادها في نصوص من المعلقات" لغيثاء قدارة الصادرة عن مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، ٢٠١٢م تعد هذه الدراسة قراءةً جديدةً من مجموعة قراءات تناولت نماذج شعرية لبعض شعراء المعلقات بالدراسة والتحليل والتفسير، عبر التعمق في البنية اللغوية الشعرية، اعتماداً على الثنائيات الضدية التي تعالج في ضوء دراسة نصية تتناول الثنائيات، وتقف على أبعادها النفسية، إلا أنه لا نكاد نجد في الميدان البحثي العربي أي نتاج في إطار دراسة أشعار أدونيس من هذا الباب، ولا توجد إلى حد الآن أي دراسة عربية متخصصة تدرس الثنائيات الضدية في مجموعة "قصائد أولى" لأدونيس. لقد كان خلوّ المجال من بحث متخصص، فضلاً عن بكارته وخصوبته هو الحافز الأول لاختيار الذاكرة الجمعية موضوعاً لهذه الدراسة التي قد تفتح آفاقاً جديدة لطلاب فرع اللغة والأدب العربي لدراسة أعمال الشاعر من جوانب مختلفة. أما دراستنا فتتوي الإجابة عن الأسئلة التالية:

1- ما مدى ظهور الثنائيات الضدية في قصائد أدونيس؟

2- ما المحور الأساسي الذي تمحور عليه تلك الثنائيات؟

## 2-1- التعريف بالمجموعة

"قصائد أولى" هو عنوان مجموعة شعرية للشاعر السوري علي أحمد سعيد الشهير باسم أدونيس. تجمع هذه المجموعة قصائد أدونيس الأولى للفترة وتمثل بواكير الشاعر وقد حفلت برصد المواقف المختلفة التي جمعت الشاعر مع الوطن والأهل والأصدقاء والأحبة، إضافة إلى تساؤلاته الفلسفية والوجودية فضلاً عن اهتمامه بالفن والتراث والطبيعة والعالم والبحث والحياة الأبدية والعدم. بعد انتشار هذه المجموعة برز اسم أدونيس في طليعة الشعراء الحداثيين، والحداثة عند أدونيس تعني التصادم بين عقليتين، وهي الخروج على التقاليد الموروثة سلطوية أو أدبية كنتيجة طبيعية لتغير الأزمنة. الطبعة الأولى لهذه المجموعة كانت في عام ١٩٥٧ م أما الصيغة النهائية لهذه المجموعة والتي نعتمد عليها في دراستنا فقد نشرتها دار الآداب عام ١٩٨٨م. نبذ الشاعر التقليد والمحاكاة ورفض الاتباع والمسايرة، وتطلع إلى التجديد واقتناص مواضع الانزياح، بفردانية بعيدة كل البعد عن كلاسيكية السابقين واستخدام التقنيات الحديثة. ومن اللافت للنظر من خلال قراءة هذه المجموعة هو ملاحظة عدم تعقيد المعنى في مناسبات كثيرة، بالإضافة إلى اليقين الطامح إلى الجدل والاستشراق المتفائل للشاعر. من خلال دراسة المجموعة نجد أن أساس تكوين العديد من القصائد هو نوع من الضدية باللفظ والدلالة.

## 3- تعريف مفهوم "الثنائيات الضدية"

تعدّ مفهوم الثنائيات الضدية أساساً من أسس التحليل البنائي النقدي للنصوص الأدبية، ونشأ مصطلح الثنائيات الضدية في النقد الحديث في أحضان البنيوية، يؤدي الكشف عنها للوصول إلى البنية المتحكمّة في النص. إذ لا تتم معرفة الأشياء في ضوء معرفة خصائصها الأساسية فقط، وإنما يتم ذلك في ضوء تمايزها، فالكلمة ليست لها معنى في ذاتها، بل معناها يكمن في ضدها، الأمر الذي جعل العالم اللغوي "فريدنان دي سوسير" ينظر إلى اللغة على أنها نظام من الاختلافات، وهذا التصوّر انطلقت منه البنيائية، إذ أخذت في ضوئه تنظر إلى العالم على أنه مجموعة من الثنائيات المتشابهة والمتقابلة، تنعكس على شبكة العلاقات، فتحيلها إلى مجموعة من الثنائيات الخاصة (عبدالمطلب، 1995م: 149).

ولعل من أهم الدراسات التي تبنت فكرة الثنائية الضدية دراسة "فريدنيان دي سوسير" إذ انصب جهده على دراسة التقابلات أو الثنائيات التي أقيمت في صرح الحقل اللغوي مثل ثنائية اللغة والكلام ومحوري التعاقب والتزامن (سوسير، 1958م: 9). إن دي سوسير يعتقد أن «الكلام متعدد الأشكال، متنافر المسالك، مختلف الصيغ، تتنازع دراسته مجالات متعددة من طبيعية وعضوية ونفسية، وينتمي إلى الدائرة الفردية والاجتماعية معاً، فإن اللغة على العكس من ذلك كل مستقل في ذاته قابل للتصنيف، فاللغة نظام من الرموز المختلفة التي تشير إلى أفكار مختلفة» (فضل، 1998م: 19-20). وتابع "ليفي شتراوس" ما بناه سوسير من أفكار في حديثه عن الثنائيات الضدية حين سعى «إلى تفسير التحولات التي تحدث في الثقافة وفي الإدراك الفردي للواقع الاجتماعي، في محاولة ممنهجة للكشف عن معنى الاساطير» (كريزويل، 1993م: 25-26).

ويعرّف صلاح فضل الثنائيات الضدية بأنها: «القدرة على نظم العلاقات التي تقيمها بين العنصرين المتقابلين، وهي تخلق بنية مثلها في تلك التقابلات» (فضل، 1998م: 193). ويعرّف المعجم الفلسفي الثنائية: «الثنائي من الأشياء ما كان ذا شقين، والثنائية هي: القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها، أو ثنائية الواحد والمادة، أو ثنائية الواحد وغير المتناهي عند الفيشاغورثيين، أو ثنائية عالم المثل وعالم المحسوسات عند أفلاطون... والثنائية مرادفة للثنائية، وهي كون الطبيعة ذات مبدئين، ويقابلها كون الطبيعة ذات مبدأ واحد، أو عدّة مبادئ الثنوية والاثنيية» (صليبا، 1982م: 285). ونفهم من المقبوس السابق أن الاثنيية تفترض احتواء الشيء على مبدئين مستقلين لا يذوب أحدهما في الآخر، ولا يشبهه، كالأبيض والأسود، الحلو والمر، والنار والماء؛ والثنائية الضدية تشكّل في الكلام شقين متعاكسين، لا يجتمعان في شيء واحد.

ويرى جان كوهن أن الثنائية الضدية تنشأ من شعورين مختلفين يوقظان الإحساس، وواحد من هذين الشعورين فقط هو الذي يستثمر نظام الإدراك في الوعي، والثاني يظل في اللاوعي (كوهن، 1995م: 187). وقد اعتنى اللغويون المعاصرون والنقاد البنيويون بمصطلح الثنائية الضدية Binary Opposition وأكدوا فاعلية وجوده في النص الشعري بوصفه معنى يفجر الطاقة الشعرية في الصور والمعاني. (الكعي، 2006م: 53). ويذكر "كمال أبو ديب" بعض الميزات التي تحتصّ بها الثنائيات الضدية وتتميّز بها عن باقي جسد النصّ ومنها التكرار، فيقول: «الثنائية الضدية تنبع من تمائر ظواهر معينة في جسد النصّ، ومن ثمّة تكرارها عدداً من المرات، ثم انحلال هذه الظواهر وإخفائها، بهذه الصفة يكتسب النصّ طبيعته الجدلية» (أبو ديب، 1984م: 109). إن الثنائيات الضدية تساعد على التأثير بالمتلقي فمن وسائل الاقناع الحجة الفعلية القائمة على الاستدلال والمقارنة بين المتناقضين لتبيين المفارقة الشاسعة بينهما فتعمل النفس على الالتصاق بالإيجابي الحسن والنفور من السلبي القبيح، فالربط بين الأشياء المتنافرة يثير العواطف الأخلاقية والمعاني الفكرية في المتلقي، لأن الأخير يمس هذه المقارنة وهذا التنافر ويعيشهما وهذه الاثارة تؤدي إلى التأثير والاقناع وتحقيق الغاية المرجوة ومن ثم فإن التضاد يستغل أكثر وذلك لبعد الهوة بين النقيضين والشيء يعرف بضده. (مسعود، 2015م: 161).

## 4- نماذج من الثنائيات الضدية في شعر أدونيس

تشكل الثنائيات الضدية جزءاً مهماً من عمل المفارقات التي يقوم عليها الشعر، فهو بطبيعته التكوينية والبنائية سياق لغوي يتناقض مع الكلام العادي والمعتاد، فلا يمكن أن نسمي الكلام شعراً إلا في حال اصطباغه وتميّزه بتلك الأبعاد الجمالية. استثمر الشاعر في مجموعته "قصائد أولى" عدداً من الثنائيات داخل منظومته الشعرية، إذ غالباً ما تتضح لديه فكرة الصراع بين "الحلم والواقع"، و "الحركة والسكون"، و "الضوء والعتمة"، و "الحضور والغياب"، و "اليأس والأمل".

### 4-1- ثنائية الضوء/العتمة

يستثمر الشاعر هذه الثنائية التقابلية داخل منظومته الشعرية علماً أن الضوء هو النقاء، والصدق، والسلام، والبراءة، والنظافة، والبساطة، والأمن، والأمل، والحق، والخير، والنور، والفضيلة، والإصلاح، والبياض وأن العتمة تمثل الغياب، والرحيل، والسلطة، والتعقيد، والرسومية،

والغموض، والشر، والموت، والخوف، والحزن، والباطل، والشر، والظلام، والرذيلة، والفساد، والسواد، فهو يعبر عن هذه التفاصيل كلها عندما يوظف هذه الثنائية. إن ثنائية الضوء والعتمة في شعر أدونيس تتشكل في الغالب على وفق المصادر الضوئية الطبيعية المرتبطة بالوقت مثل الليل والغروب والصباح والنهار وأيضاً الشمس والقمر والنجوم. وقد حاولنا اجراء تحليلنا لشعر أدونيس عبر الكشف عن عناصره الدلالية في ضوء المحايثة بين الشاعر وهذه الثنائية (الضوء والعتمة) التي تظهر جلية في مواطن مختلفة من قصائده. يقف الشاعر في النص التالي ليحسد فاعلية الضياء/ الفجر/ النور في نسقه التفاضلي، فالنص يحاول توظيف الفجر في معنى الأمل وطلوع أيام بيضاء وتغيّر الأحوال، يقول الشاعر:

«يا لتوقي، يا عمقه، يُخلق

المجهول فيه وتولد الأيام

يمسح الوهم عن حياتي فلا

الإيهام يلهو فيها ولا الأوهام

بعضي الفجر، بعضي النور والحب

فما مرّ في كياني ظلام» (أدونيس، 1988 م: 9).

التقابل هنا بين الشاعر الذات/ الفجر/ النور وبين الظلام الذي يحاول أن يتغلغل في كيانه الشاعر والإطاحة بمملكة النور والحب. استخدم الشاعر مفردات الفجر والنور والحب ليشير إلى وحدة المفاهيم الإيجابية وعدم انفصامها في خدمة الانسان والانسانية. أضفى توظيف ثنائية الضوء والعتمة على النص صبغةً جماليةً من خلال ما تحقّقه هذه الثنائية من ديناميّة تجعله مُنفتحاً على تعدّد القراءات. ويكتب أيضاً:

«ها طريق الحياة نحن شقّقناها

عراكاً وثورةً وجهادا

نتخطى عنف الزمان ونلقي

صور الغُف خلفنا أمجادا

ربّ نور كان الحياة لشعب

لمحته عين الظلام سوادا» (أدونيس، 1988 م: 13).

في المقبوس ثنائية ضديّة بين النور والظلام. وهذا التضاد يزيد من حدّة التوتر، توتر علاقة الذات بالظرف الذي يحيط بها. وفي مثل هذا النوع من الثنائيات يرتبط طرفا الثنائية ارتباطاً استلزامياً لتحقيق التضاد اللغوي، النور هنا رمز للخير والتنمية والسلام والأمن، والسواد رمز للشر والخبث والتضييق وهذا التوظيف ينسجم مع أبعاد تجربته الذاتية التي يروم التعبير عنها. ويؤكد الاحتفاء بهذه الثنائية قول الشاعر:

«ما علينا قهر الصعاب، ولكن

علينا أن نقهر المستحيلا

نحن تاريخنا ونحن ليال

ضحكت في يمينه إزميلا

فجر الكبر في جوانحنا زينا

وألقى جراحنا قنديلا

همنا أن نمزّق الحُجب السود

ضياء، ونكشف المجهولا

كثفتنا الحياة حتى كأننا

ألفُ جيلٍ منها يعانق جيلا». (أدونيس، 1988 م: 16).

جمالية الثنائيات الضدية تنشأ من الالتقاء بين المتناقضين في بنية واحدة، وهذا ما يؤدي إلى تعميق البنية الفكرية للنص بالحركة الجدلية. تقع الثنائية الضدية هنا بين الحُجُب السود والضياء. لا ينكشف المجهول حتى تمرّق الحُجُب السود بواسطة الضياء. استخدم الشاعر فعل همتا ليشير إلى حامي الفكر الوجداني النهضوي الذين يناضلون من أجل دحر الباطل وإقرار العدل وتحقيق الإنسانية.

## 4-2- ثنائية الحركة/ السكون

إنه تضاد يتجاوز الجمع بين مفردتين متعاكستين (الجمود والحركة) إلى تضاد موقف، ورؤيا، والتميز يكون بالأضداد، لأن جوهر الثنائيات التوازني، لا الجمع، فيجب أن يحكم التوازن هذا العالم المتضاد. سنتناول في هذه الفقرة الحركة والسكون في القصائد الأولى بوصفهما سلوكين متضادين يمكن من خلالهما التمييز بين الأشياء الحركية من غيرها. وفي أول نصٍ نتناوله نلمح التغيّر الذي يشكل بؤرة مسألة الساكن والمتحرك يدخل في ثنائية قصيدته، يجسّد أدونيس هذه الثنائية الضدية:

«قُم مع الشمس يا شبّابي وحرك

عالمًا ساهم البصيرة جامدًا

أنت علّمته الحياة قديماً

وستبقى له دليلاً ورائد» (أدونيس، 1988 م: 8).

ثمة مشاهد تثير الحركة والسكون في هذا النص، ففعلي "قُم" و"حرك" يوحيان بحركة نصية، إلا أنه في المقابل نجد كلمة "جامدًا" تشير إشارة نصية إلى السكون. فيعكس هذا المقبوس ثنائية الحركة والسكون. والطرفان غير متكافئين على الصعيد النفسي، فالشاعر يرى العالم بأسره عالمًا جامدًا خامدًا غير ذي حركة. الشمس هنا رمز الانبعاث والاستيقاظ والنهضة والبدائية، بما يبدأ اليوم وينقشع الظلام وتسري الحياة، فيخاطب الشاعر شبابه ويأمره بالاصطفاف إلى جانب الشمس لتحريك هذا العالم الجامد والانتقال من حالة الركود والسكون إلى عالم مليء بالحضور والحياة والحركة. وفي النص التالي الذي يندرج ضمن النسق الدلالي نفسه، يقول الشاعر:

«في الدروب انتفاضة الكبر

فالخطو عليها محقّر مرذول

قدم تكتب الجريمة والبغي

فخطواتها دم وقثيل

والقرى صفرةً فقد مسح الخضرة

عن وجهها النضير، الذبول

كل بيت فيه شفاه تجمّدن...

فماذا تشكو، وماذا تقول؟

يورق اليبس في الصراع، ويحيا

الميت فيه، ويطل المستحيل!» (أدونيس، 1988 م: 12).

وقد جاءت ثنائية التضاد بين تجمّد الشفاه/التوقف وبين الكلام/الحركة؛ بين يورق/النمو/الحركة وبين اليبس/الموت/التوقف. فتمثل هذه الثنائيات طرفي الصراع الإنساني الذي لم يبلغ منتهاه على الرغم من المكابدة والاحتدام الحاصلين. وفي هذا المقبوس قد رأينا

ضرباً من التقارب بين قطبي الثنائية وتحقق أحدهما على حساب الآخر، كأن تزيح الحياة الموت، وهذا معناه بروز قطب الحياة في مقابل اضمحلال قطب الموت وكمونه في منطقة اللاشعور، فالإنسان إما أن يكون حياً أو ميتاً. كما يشير التقاء الثنائيات الضدية الدهشة والمفارقة الناجمة عن اجتماع المتناقضين في هذا النص، ومن المهم الإشارة هنا إلى أن هذا الالتقاء يفتح النص على أكثر من محور، فلم تعد الحركة والسكون ثنائية ضدية تسهم في بناء القصيدة فحسب، بل هي بنية ذات دلالات نفسية تؤثر على القارئ وتسحبه إلى داخل النص، وتدعوه للمشاركة هو الآخر في بناء النص وإنتاج دلالاته، وهذه سمة إبداعية اهتم الشعراء المعاصرون بها وحرصوا على وجودها في نصوصهم. وفي النص التالي الذي يندرج ضمن النسق الدلالي نفسه، يقول الشاعر:

«يا لتوقّي، يا عمقه، يُخلَق  
المجهول فيه، وتولد الأيام  
يمسح الوهم عن حياتي فلا  
الإيهام يلهو فيها ولا الأوهام  
بعضي الفجر، بعضي النور والحب  
فما مرّ في كياني ظلام  
إن أكن نمّت مرة، فلأعمّقي  
دويّ مجلجل لا ينام» (أدونيس، 1988 م: 10).

كما يبدو التناقض بارزاً في هذا النص بين النوم/الجمود وبين الدوي المجلجل، إذ يرسم الشاعر صورة يؤكد فيه على وعيه وإن نام مرة فالصوت المدوي في أعماقه لا ينام. كما يتلاقى النور والفجر والحب معاً لتشكيل طرف مضاد للظلام، كما تظهر هنا ثنائية أخرى في النص هي الداخل والخارج، الحب والنور والفجر كلها ترتبط بداخل الإنسان ولكن الظلام يأتي من الخارج بهدف الدخول لكنه يعجز، وقد يكون رمزاً للعدو أو التخلف أو التحجر أو الشر بصورة عامة. وهنا جعلنا الشاعر نستشعر بالحالة الإيجابية عندما دمج ثلاثة عناصر الحب/النور/الفجر باعتبارها عناصر نقيّة، وجعلها ضداً للعتمة فجعلها تدخل المستويات الفكرية والوجدانية.

#### 4-3- ثنائية الحلم/الواقع

الحلم عالم شاسع وفسيح له مكانة كبرى ولا يقل أهمية عن عالم الواقع في حياة الإنسان، فلا يجوز النظر إلى الحلم بمعزل عن الواقع. يقول لوران بارث: «إن الحلم يمكن من رهاقة قصوى في المشاعر الأخلاقية بل الميتافيزيقية أحياناً، ويسندها ويمسك بها ويستكشفها استكشافاً كما يكشف عن أدق العلاقات الإنسانية، عن الاختلافات المرفهة، وعن معرفة متمدنة أعلى ما يكون التمدن. باختصار يكشف عن منطق واعٍ مترابط بدقة غريبة، لا يبلغها إلا عمل شديد اليقظة» (بارث، 1998 م: 59). والحلم على المستوى التحليلي النفسي وكما يفهمه فرويد: «هو الأسلوب الذي تستجيب به الحياة النفسية للمنبهات التي تكتنفها خلال النوم، قد تكون هاته المنبهات بقايا من النشاط النفسي لحالة اليقظة: وقد تكون تحقيقاً لرغبة مكتوبة في اللاشعور» (فرويد، 1978 م: 114). ولأحلام قوة عجيبة فبها نصنع عالماً غير الذي نعيش فيه وواقعاً مختلفاً بفعل المفردات الشعرية أو قوة تصور العقل ومن هنا نشأت ثنائية الحلم والواقع، هذه الثنائية تشكل منظومة دلالية تكشف عن الثنائية الذاتية المنطوية في نفسية الشاعر وهي ثنائية السلب والإيجاب:

«يا ظلمة في أفقي  
يا قلقي،  
شدّ على تجددي ومزّق  
واعصف به وحرّق،  
لعلّ في رماده

أبتكر الفجر النقي» (أدونيس، 1988 م: 66).

يتناول أدونيس الوجود بوصفه معطى جدلياً مابين المتخيل والواقع ضمناً، لذا يرفض البقاء والثبات، كونه مندرجاً ضمن صيرورة زمنية دائمة من التغييرات الفكرية، والاجتماعية والنفسية. وإذا تأملنا نجد الشاعر يحاول أن يجسّد من خلال هذه الثنائية الصراع الداخلي الذي يعيش في كنفه والقائم أساساً بين فكرة الغياب والحضور وذاك باعتبار الواقع يمثل الغياب عنده كونه يتنافى ما يحلم به ويطمح إلى تحقيقه والوصول اليه، أما الحلم فيمثل بالنسبة له الحضور كونه يعبر عن الأشياء الجميلة التي يطمح الى تحقيقها والوصول اليها، لذا يريد أن يتجاوز الحالي القبيح البشع والمشوّء بالحلم (لمجازي الجميل) لسدّ فجوة المعنى باللامعنى والواقع باللاواقع.

ويكتب الشاعر:

«غداً ، عندما بلادي تغني:

"أنا الحبّ يُؤثّر عني

بوجهي محوّت السّوادا

وصرت لكلّ بلادٍ بلادا -

فلم يبق في أرضنا ظلامٌ ولم يبق شرٌّ، -

فقل أنا حرٌّ ، وقل أنت حرٌّ» (أدونيس، 1988 م: 81).

وليس بالضرورة أن نجد كلمة "الحلم" صراحة وبشكل مباشر في القصيدة لتشكيل ثنائية الحلم والواقع، يكفي أن الشاعر قادر على أن يستمد منه الطاقة الضرورية التي تندفع بالنص حول آفاق جديدة تقع في تلك المنطقة الوسطى بين الحلم والواقع. يحلم الشاعر بوطن تسوده الطمأنينة، والسلام، لكن يبقى كل من السلام، والحرية، مجرد أحلام يحلم بها الشاعر، لأن الواقع عكس ما يحلم به، ومنه يبقى الصراع بين ما يحلم به وبين ما يعيشه واقعاً في الحياة اليومية، ومحاولة للخلاص والتغلب عليه حاول الشاعر تجسيد الحلم في أمور كثيرة.

ويكتب الشاعر في قصيدة أخرى:

«متى أرى والكون لي ملعبٌ

والحب والعزة لي ساعدان

قلبي للثورة مستنفر

دقّاته صارت زمان الزمان» (أدونيس، 1988 م: 10).

والشاعر هنا لجأ إلى الحلم عبر استخدام عبارة "متى أرى والكون لي ملعبٌ" لخلق وسيلة تربط بين حلمه الشعري وبين الواقع المجذب الذي لا سعادة فيه، فجعل الحلم كمعادل موضوعي ليعبر عن كل ما يجول بداخله.

#### 4-4-ثنائية الحضور/ الغياب

إنّ ثنائية الحضور والغياب تتألف من التباين والاختلاف بين عنصرين أساسيين وبهذه الصفة تصبح القصيدة تتمتع بالطبيعة الضدية أو الجدلية. فالحضور يشير إلى حضور الذات في الواقع وإلى قدرتها على تأسيس وجودها الخاص، في حين يشير الغياب إلى عدم قدرتها على التواصل مع واقعها بسبب الكثير من المؤثرات. وبهذا تبقى الذات متأرجحة على نحو جدلي بين قطبي هذه الثنائية، ويفرض عليها وضعاً دائماً من التباين والتناقض والتخالف، كما يكسو التجربة طابعاً درامياً واضحاً. وقد جاءت هذه الثنائية بأشكال توظيفية متفاوتة لدى الشعراء المعاصرين؛ منهم من اعتمدها على صعيد المضمون فوظفها كرمز أو أسطورة أو قناع أو تناص وإلخ ومنهم من اعتمدها على صعيد الأسلوب فهندس بها طريقة كتابته للشعر. ظهرت هذه الثنائية جلية في أشعار أدونيس ويؤكد ذلك مجموعة مقاطع، من قبيل قوله:

«أعيش مع الضوء عمري عبيرٌ

يمرّ، وثانيتي سنوات

وأعشق ترتيلة في بلادي

تناقلها كالصباح الرعاة؛

رموها على الشمس قطعة فجرٍ نقي

وصلّوا عليها وماتوا-

إذا ضحك الموت في شفتيك

بكت من حنينٍ إليك، الحياة» (أدونيس، 1988 م: 91).

هناك ثنائية بين الموت والحياة أو الحضور والغياب، نجد دلالات هذا المقطع في إطار الهواجس التي جسدها الشاعر. وبذلك تفرض طبيعة رؤية الشاعر الثنائية على الذات الشاعرة حالة من التوتر والتضاد يجعلها تتأرجح بين طرفين متضادين: طرف الحضور وطرف الغياب؛ الأمر الذي يمنح التجربة طبيعة جدلية ويكسوها بسمات دينامية ودرامية.

ويكتب الشاعر:

«أبي غدّ يخطر في بيتنا

شمسا وفوق البيت يعلو السحاب

أحبه سرّاً عصياً دفين

وجبهة مغمورة بالتراب

أحبه صدرراً رميمًا، وطن» (أدونيس، 1998 م: 35).

نرى في هذا المقبوس وجود هاجس الحضور والغياب ضمناً بطبيعته الجدلية. الأب الآن غير موجود (غياب) وسيخطر في البيت يوم غد (حضور). إنها التعارضات التي تعطي للصورة خصوصية الحضور والغياب في آن واحد. حضور تشهده المخيلة وترقب مظاهره، وغياب تتحسسه النفس، وتستشعر آثاره.

ويكتب الشاعر أيضاً:

«فانحنت تأكل التراب وتستفّ

بقايا موائد وقشور

وعلى ثغرها رجاء: تخضّرُ

أرضي، غد يضيء سريري» (أدونيس، 1998 م: 18).

الإرجاء هو عكس الحضور، أي إنّنا عندما لا نستطيع أن نأتي بشيء أو فكرة فنحن نشير إليها بكلمة، ومن ثمّ نستخدم العلامات مؤقتاً ريثما نتمكن من الوصول إلى الشيء أو الفكرة، وعلى هذا فإنّ اللغة هي حضور مرجأ للأشياء والمعاني، فالأخضرار الذي هو دلالة رمزية عن الأمان والحرية والعيش الكريم، غائب هنا وتأكل الأم التراب في ظل هذا الغياب، منتظرة الحضور الذي سيصاحبه الخير والبركة والطعام والأمن والأمان.

#### 4-5- ثنائية اليأس/ الأمل

يقول كيركجور «لا يوجد إنسان على ظهر الأرض يخلو من كل يأس. كما أنه ليس على وجه الأرض إنسان واحد يخلو جسمه تماماً من كل مرض... لا يوجد موجود بشري تخلو نفسه تماماً من كل أثر للتمزق أو الازعاج أو الضجر أو اليأس أو الجزع أو أي صورة من صور التمزق الباطني» (إمام، 1986 م: 305-304). والشاعر من خلال قصائده يصوّر اليأس والأمل المقيمين في أعماق وجوده. تظهر هذه الثنائية جلياً في قصيدة "أغنيتان للموت":

«يا يد الموت أطيلي جبل دربي

خطف المجهول قلبي

يا يد الموت أطيلي

علني أكشف كنه المستحيل

وأرى العالم قربي» (أدونيس، 1988 م: 36).

هناك ثنائية ضدية بين اليأس والأمل في هذا المقبوس، الأمل في كشف كنه المستحيل والشعور بالسعادة والراحة الجسمية والنفسية ويتجسّد في عبارة "أطيلي جبل دربي" التي تعكس ما يخالج نفس الشاعر من إحساس بالأمل؛ واليأس من حتمية الموت، رغم قوة الإنسان ومحاولاته المستمرة للانتصار على الزمن والموت.

إنّ عملية كتابة الشعر عند أدونيس عملية معقّدة يشترك فيها الخيال الوقاد، والثقافة العميقة. يكتب الشاعر:

«ذاك مجدافنا يسيرُ الى الشاطئ

في مهرجانه المجتاح

لم تلامس شراعه لحظة يأس

ولا هزّه ضجيج الرياح

ما روانا دفع الجراح، ففينا

لمداها تلقّت الملتاح» (المصدر السابق، 17)

برزت ثنائية الأمل واليأس هنا بوضوح متفاعلة مع بنية النص. فعند معاينة المقبوس نجد الثنائية الضدية واقعة في لفظي "يسير" و"يأس"؛ الأول يشير في ماهيته إلى الحركة وهو بذلك يكون ضدًا للفظ (يأس) الذي يشير إلى السواد والاحباط. وكما نرى أن الأمل يسيطر على فضاء النص موحياً بتطور الأوضاع و طلوع أيام بيضاء .

ويكتب أدونيس:

«أنا فيها الفلاح أزرعها قمحاً

وورداً، وأقلع الأشواكا

سكتي تنطح الصخور، وتمشي

في الأحافر نشوة وعراكا

وحقولي سنابل تفرع النجم

كأنّي زرعت فيها السّماكا» (المصدر السابق، 20)

وردت في هذا المقطع ثنائية اليأس والأمل ضمناً "زرع القمح" هنا له دلالة رمزية تعكس ما يخالج نفس الشاعر من إحساس بالأمل وتنبؤ بغد أفضل ومشرق ينسيه قحط الأمس ومواجيعه، والأشواك والصخور هي الموانع التي تحد من أمل الشاعر وحريره فيتعلّب عليها.

## 5-خاتمة

حاولنا في هذه الدراسة المعنونة بـ "الثنائيات الضدية في قصائد الشاعر أدونيس" إعادة قراءة النص الشعري عند أدونيس قراءة نقدية تعتمد على بنية النص لديه. و وأخيراً، وفي ضوء ما أوردناه آنفاً، خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- تبين من خلال البحث أن قصائد الشاعر زاحرة بالثنائيات التي تشكلت في رحلته الشعرية مجسدة أمنيته الأولى وهي طلب الخلود الدائم وسعيه إلى الحياة الكريمة التي أفنى حياته في طلبها، وأن عملية توظيف الثنائيات عملية متجذرة في الإبداع الشعري، لأنها تحمل في ذاتها خاصية التضاد بين مجموعة من القضايا والظواهر، الذي يمكنها من خلق "التوتر" و"الفجوة".

- إنَّ الثنائيات هي سؤال الشاعر وأزمته، فقد تأخذ صوراً لا متناهية تتجلى في كل قصائده، ولعلها صاحبة الدور الفعال والأساسي في خلق التوتر في نصوص المجموعة.

- اتسعت حدود الثنائيات في شعر أدونيس، فالحضور يقابله الغياب، والعممة يقابلها الضياء، والجمود يقابله الحركة الى ما هناك من ثنائيات تجسد وتعبر بصورة ما عن أزمة أدونيس.

- إنَّ قيمة الثنائيات الضدية في النص الشعري عند أدونيس تكمن في السماح بتعدد الدلالات وهو ما يمنح صفة الشعرية؛ فكلما كثر التضاد في النص زادت حدة الشعرية كما يرى كمال أبو ديب.

- ما نستطيع أن نستنتجه لمصطلح الحضور والغياب، أن الحضور هو الدال المادي أما الغياب فهي القيم الغائبة.

- إنَّ أدوات أدونيس وتقنياته الشعرية مهما كانت فاعلة إلا أنها لا تختلف عن أدوات الشعراء الآخرين، إلا بما يمتلكه من قدرة فائقة على الجمع بين المؤتلف والمختلف.

## المراجع والمصادر

### الكتب:

- أبو ديب، كمال، (1984م). *جدلية الخفاء والتجلي*، دراسات بنيوية في الشعر، ط3، بيروت: دار العلم للملايين.
- أدونيس، *قصائد أولى*، (1988م). بيروت: منشورات دار الآداب.
- إمام، عبد الفتاح إمام، (1986م). *كيركجور*، القاهرة: دار الثقافة.
- بارث، رولان، (1988م). *لذة النص*، تر: فؤاد صفا والحسين سبحان، الدار البيضاء: دار طوبقال.
- بشير تاويريت وسامية راجح، (2008م). *التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر*، دمشق: دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1424هـ). *الحيوان*، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الديوب، سمر، (2017م). *الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالته*، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة.
- سوسير، فردينان دي (1958م)، *علم اللغة العام*، ترجمة يوثيل يوسف، بغداد: دار آفاق عربية.
- صليبا، جميل، (1982م). *المعجم الفلسفي*، بيروت: دار الكتاب العربي.
- عبدالمطلب، محمد، *بناء الأسلوب في شعر الحداثة*، القاهرة: دار المعارف، 1995م.

فرويد، سيغموند (1978م)، *محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي*، ترجمة أحمد عزت، ط 2، القاهرة، نقلاً عن: محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة: دار المعارف.

فضل، صلاح، (1998م). *علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته*، ط 1، القاهرة: دار الشروق.

----- (1998م)، *النظرية البنائية في النقد الأدبي*، بيروت: دار الشروق.

كرينويل، إديث (1993م)، *عصر النيووية*، ترجمة جابر عصفور، الكويت: دار سعاد الصباح.

كوهن، جان، (1995م). *اللغة العليا- النظرية الشعرية*، ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش، المجلس لأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة.

الواسطي، محمد، (2003م). *ظاهرة البديع عند الشعراء المحلثين*، دراسة بلاغية نقدية، ط 1، الرباط: دار نشر المعرفة.

### المقالات:

الديوب، سمر، (2012م). «مصطلح الثنائيات الضدية»، *مجلة علم الفكر*، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 1، المجلد 41.

الكعي، ماجد عبد الحميد، (2006م). «الثنائية الضدية في نماذج من الشعر العباسي»، *مجلة أطراس*، السنة 1، العدد 2.

مسعود، علي زيتونة، (2015م). «الثنائيات الضدية في لغة النص الأدبي بين التوظيف الفني و الذوق الجمالي»، *مجلة علوم اللغة العربية وآدابها*، المجلد 7، العدد 7.